

الملتقى الوطني : أدب المذكرات في الجزائر يومي 4 و5 ديسمبر 2023. جامعة باتنة1.

المحور: تقاطع أدب المذكرات مع السيرة الذاتية والرواية والتاريخ.

الدكتورة حميدة قادوم/ أستاذة محاضرة أ / الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة.

عنوان المداخلة: أدبية السرد الذاتي وجمالية التفاصيل في مذكرات "أبي القاسم سعد الله"

The literary self-narration and the aesthetic details in the memoirs of
Abu al-qasim saad Alah.

ملخص: قالت العرب قديما: أخبار الشجعان تعلم الشجاعة، وأخبار الحكماء تعلم الحكمة، وأخبار الأذكياء تعلم الذكاء، ومن هذا المنطلق الذي آمن به القدامى من العرب وغيرهم كانت أخبار التراجم والسير ذات أهمية كبيرة في حياة الانسان، والمذكرات جزء من تلك الأخبار؛ بل هي شكل من أشكال البوح وتحرير الذاكرة ومقاومة الموت وتحقيق الخلود، لذلك اهتم العظماء والعلماء عموما بكتابة مذكراتهم التي تسرد مسار حياتهم وتفاصيل نجاحاتهم.

ويعد أبو القاسم سعد الله أحد الرموز الفكرية التي لها دور عظيم في تاريخ الجزائر الحديث، وعلم من أعلام الإصلاح الاجتماعي، ومترجم متمرس وشاعر مقتدر، وباحث له تاريخ حافل بالإنتاجات العلمية والفكرية، حاصل على وسام العالم الجزائري سنة 2007. غادرنا سنة 2013 عن عمر ناهز 83 سنة، خلفا وراءه مذكراته التي دونها بقلم الأديب، وودقة المؤرخ الباحث، وحس الشاعر المرهف، لتدخل بذلك فيما أصبح يعرف ب"السرد المذكراتي" أو "أدب المذكرات" الذي أصبح جنسا مستقلا بذاته في العصر الحديث.

انطلاقا مما تقدم، تأتي هذه المداخلة بغرض دراسة مذكرات الدكتور "أبي القاسم سعد الله" التي اعتمد فيها على السرد الذاتي المتأدب بأسلوب جعلها تتداخل مع الرواية من جهة والتاريخ من جهة أخرى، وإبراز جمالية التفاصيل في السرد المذكراتي عنده وأبرز المحطات الفكرية التي صنعت تاريخ الرجل.

الكلمات المفتاحية: السرد الذاتي، المذكرات، التفاصيل، الأدبية، أبو القاسم سعد الله.

Summary:

The Arabs said in the past : News of the brave teaches courage, news of the wise teaches wisdom, and news of intelligent people teaches intelligence. From this standpoint, which the ancient Arabs and others believed in, news of biographies and biographies were of great importance in human life, and memoirs are part of that news. Rather, it is a form of revelation, liberating memory, resisting death, and achieving immortality. That is why great people and scholars in general were interested in writing their memoirs that narrate the path of their lives and the details of their successes .

Abu al-Qasim Saadallah is considered one of the intellectual figures who has a great role in the modern history of Algeria. He is one of the figures of social reform, an experienced translator, a capable poet, and a researcher with a history full of scientific and intellectual achievements. He was awarded the Algerian World Medal in 2007. He left us in 2013 at the age of 83 years. , leaving behind his memoirs that he wrote down with the pen of a writer, the precision of a historian and researcher, and the sensitive feeling of a poet, thus entering into what became known as “memoiral narrative” or “memoir literature,” which has become an independent genre in itself in the modern era.

Based on the above, this intervention comes for the purpose of studying the memoirs of Dr. Abu al-Qasim Saad Allah , in which he relied on polite self-narration in a manner that made it intertwine with the novel on the one hand and history on the other hand, and to highlight the beauty of the details in his memoir narrative and the most prominent intellectual milestones that made the man’s history.

Keywords: self-narration, memoirs, details, literary, Abu Al-Qasim Saadallah.

ظهرت الكتابة الذاتية في الأدب العربي منذ القديم واختص بها كتّاب الرسائل والرحلات، يصورون من خلالها مغامراتهم وما يصادفهم أثناء رحلتهم، فكانوا يجعلون الكتابة وسيلة لمقاومة الموت وتخليد اللحظات الحاسمة في حياتهم، فيأتون على ذكر الأخبار لتكون إما سبيلا للتعليم أو التهذيب والتأديب أو التصح والإرشاد. أما عند الغربيين فقد عُرفت المذكرات منذ أن كتب شاتوبريان "مذكرات ما وراء القبر" التي تعتبر أولى المذكرات المؤسسة لهذا الجنس الأدبي المستقل، يليها بعد ذلك كتاب "اعترافات" لجون جاك روسو؛ ممثل عصر التنوير بلا منازع.

وقد انتقل هذا الجنس الأدبي في صورته الحديثة إلى أدبنا العربي وبدأ الاهتمام به متأخرا خاصة بعد التداخل الاصطلاحي الذي ظهر بين لمذكرات Mmoires والاعترافات Confessions والسيرة الذاتية Autobiography. فكيف كانت نظرة النقاد العرب إلى أدب المذكرات؟ وما مدى اهتمامهم بهذا الجنس الأدبي؟ وما الفرق بين أدب المذكرات والسيرة الذاتية؟ وأين يمكن أن نصنّف مذكرات أبي القاسم سعد الله التي دونها قبل وفاته؟

1-أدب المذكرات:

تجدر الإشارة في هذا المقام أن للعرب مذكرات كثيرة كانت تصنف في باب التراجم والمذكرات الشخصية، ولكن الاهتمام بها كان ضعيفا جدّا، ولم يعتبر أبدا جنسا مستقلا بذاته إلا عندما ظهر المستشرق الألماني فرونز روزنتال Franz Rosenthal الذي نفى الغبار عن التراجم الإسلامية وأثبت أن "للعرب مذكرات شخصية هامة يمكن أن تدرس باعتبارها فنّا مستقلا بذاته خلافا لما كان يعتقد الدارسون العرب والكلاسيكيون منهم بالخصوص من أنّ التراجم الذاتية مجرد هوامش"¹

ولعل السبب في ذلك يعود إلى اختلاط المفاهيم عند العرب الذين كانوا يعتنون بأدب الرحلة الذي كان معروفا وشائعا عندهم ، ومن ذلك المنطلق عدّ البعض كتب الرحلات كتابات ذاتية يمكن

¹-محمد مصمولى، أدب المذكرات في تونس، مجلة الآداب، مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر، ع4، 1أفريل 1972، تونس، ص131

التعامل معها على أنّها مذكرات تمثل شكلا من أشكال البوح والمقاومة، وهي تتقاطع بشكل أو بآخر مع قالب الرحلة" حيث يعتمد هذا الشكل الفني لهذا القالب -في أغلب الأحيان- على أن الرحلة يترك كتابا أو مخطوطا يدون فيه كل ما شاهده وجرّبه في رحلاته عن طريق استخدام ضمير المتكلم مبتغيا فيما كتب أن ينصح أهل بلده وأتباع ملته ، ويصبرهم بما اكتشفه من عجائب الدنيا مقارنا ما رآه وما عهده في بلده، منتقدا ما رآه حينما وما ألفه في أهل بلده حينما آخر.²

لقد ظلّ هذا الجنس الأدبي يعاني من هذا التداخل الحاصل بينه وبين أدب الرحلة -كما سبقت الإشارة- وبينه وبين السيرة الذاتية التي هي جنس آخر مستقل بذاته، وظلّ السؤال المحتمل دوما هو ما علاقة المذكرات بالأدب عموما؟ وهل يشترط أن يكون كاتبها أدبيا؟

لعله من المهم جدا الإجابة عن هذا التساؤل لأن التداخل بين المذكرات والسيرة الذاتية متشابك جدّا، ولا نكاد نفرق بينهما غير الإفراط في التعبير عن الذات في السيرة الذاتية، والاهتمام بالآخر إلى جانب الذات في المذكرات، بل قد تكون هذه الأخيرة في شكل شهادات، أو مذكرات يكتبها أحدهم عن شخصية معروفة ولها أثر في المجتمع "كما هو الحال بالنسبة للشاعر(ألفريد دي موسيه) الذي كتب عن شقيقه في الرد على جورج صاند، أو كما هو الحال بالنسبة ل (فيكتور هيجو) و(تولستوي) وقد كتبت عنهما زوجتهما، أو بالنسبة للشاعر اللبناني خليل جبران) الذي كتبت عنه امرأتان من أمريكا ومذكرات الأولى(باربارة يونغ) نشرت أما مذكرات الثانية(ماي هاسكل) -وهي الأهم- فما زالت مخطوطة إلى الآن ولم يهتم بها إلا عربي واحد وهو (توفيق صايغ)³

ونحن نقرأ هذه الأسماء المعروفة وما خلفته من إصدارات في مختلف مجالات الأدب نفهم أنه لا يكتب المذكرات إلا الناجحون أو الذين أحدثوا تغييرا بطريقة ما في المجتمع، والسياسة، والأدب، والفكر وغيرها. وبالتالي فهم يكتبون لنقرأ قصص نجاحهم ونضالهم المستمر واصرارهم على الاستمرار والنجاح رغم الخيبات التي لا يسلم منها أحد، فأدب المذكرات يسمح لصاحبه بأن " يقص تاريخ عصره ومجتمعه

²-حاتم بن التهامي الفطناسي، السرد وأسئلة الكينونة، بحوث مؤتمر عمّان الأول للسرد، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع،

مجلة دبي الثقافية، الإمارات، ص142 و143.

³- محمد مصمولى، أدب المذكرات في تونس، ص130.

من خلال رؤيته وتقويمه للأحداث، ولكنه يختلف عن المؤرخ الذي يتعامل مع الحقائق من وجهة نظر موضوعية، ولذا فإن كثيرا من المذكرات التي يكتبها الساسة والقادة ليست تاريخا بقدر ما هي تبرير لأحداث سيئة يريدون التخلص من مسؤولياتها ويؤكدون في المقابل لأنفسهم المنجزات التي تمت بنجاح⁴ وهذا ما أُنْتَبِه إليه العرب قديما وأكدوا أن أخبار الشجعان تعلّم الشجاعة، وأخبار الحكماء تعلّم الحكمة، وأخبار الأذكياء تعلّم الذكاء.

ولعل أهم ما تحفقه قراءة المذكرات هو أن تجعل القارئ يعيش أكثر من حياة واحدة، يتعرف من خلالها على الشخصيات التي أحبها وأعجب بها، فيدخل عالمها ويعيش زمنها، لذلك عاد هذا الجنس الأدبي إلى الأمام وأصبح أكثر أهمية من ذي قبل لدرجة بات التداخل بينه وبين السيرة الذاتية واضحا، فالمذكرات تشبه السيرة الذاتية غير أنها تختلف في المنهج وفي الغاية، فالأحداث في السيرة الذاتية مترابطة وفق شرط التداعي الزمني، حيث تنمو بشكل يحاكي الواقع ويمثل تطوره في الحقيقة، أما الكتابة المذكراتية فإنها انتقائية، يتخبر فيها المؤلف أهم التفاصيل العالقة بذاكرته المؤثرة في وجدانه ومشاعره بصورة تستهدف مشاركة هذه التجارب مع المتلقي، وتحويل النص المذكراتي إلى منظومة تفاعلية مع الجمهور اعتمادا على صدق المشاعر⁵

وقد اختلف النقاد الغربيون كثيرا في تحديد مفهوم المذكرات وطبيعة السرد فيها، نظرا لصعوبة التفريق بينها وبين السيرة الذاتية إلا في معيار واحد وهو كون السيرة الذاتية تركز على سرد الذات بينما تركز المذكرات على سرد الآخرين من حوله، لذلك يرى دانيال كايروبر أن مفهوم المذكرات ليس مفهوما لكل العصور، فمن يقول (مذكرات) إنما هي نظرة إلى الوراء أو على الأقل نظرة خارج النفس للبحث عن شهادة حول حقيقة زمنية : التاريخ-فرديا أو جماعيا أو تسلسل الأحداث ؛ المذكرات

⁴-علي عبده بركات، رواد السيرة الذاتية من إفريقيا وعرب، مجلة العربي، ع165، جمادى الآخرة 1392هـ/ أغسطس 1972، ص162.

⁵-حبيب بوزوادة، أدب المذكرات في التراث العربي، قراءة في الشجر الجماني لابن سحنون الراشدي، مجلة اللغة العربية، مج، 24، ع2، الثلاثي الثاني، 2022، ص60.

يصنعها التاريخ في مرحلة تحت شكل وقائع أو رسم للمجتمع أو شهادات.⁶ وانطلاقاً من هذا المفهوم الذي حدده دانيال تشكلت مذكرات أبي القاسم سعد الله التي تمثل السند المعتمد في هذه الدراسة، في محاولة من الباحثة للكشف عن التداخل الحاصل فيها بين السرد المذكراتي والسرد الروائي، وبين السرد المذكراتي والتاريخ الفردي والجماعي في آن معا، هذا من جهة، والعمل على كشف أدبية هذه المذكرات وتجانس محتواها وتسلسل أحداثها من جهة أخرى، في قالب يوحي بأهمية كتابة المذكرات عند صنّاع التاريخ والفكر سواء كانت كتابة ذاتية أو يكتبها عنهم من عاصروهم وجالسوهم.

2- كتاب "حياتي" لأبي القاسم سعد الله: مذكرات أم سيرة ذاتية؟:

لعله من المهم جدّاً قبل البحث في أدبية ما دونه (أبو القاسم سعد الله) من يوميات وذكريات وأحداث، هو ضرورة تصنيف هذا المؤلف تصنيفاً صحيحاً؛ هل هي مذكرات أم سيرة ذاتية؟ وتكون الإجابة عن هذا السؤال انطلاقاً من طبيعة السرد الذي اعتمده الكاتب، هذا من جهة، وتطبيقاً للمعيار الفاصل بينهما كما حدّده النقاد - كما سبقت الإشارة - وإنّه من الواضح جدّاً وأنت تقلّب في صفحات الكتاب وتغوص في تفاصيل السرد وعلاقته بالمرجع/الواقع تدرك أن الذي بين أيدينا إنما هي مذكرات شخصية جمع فيها (سعد الله) أهم محطات حياته منذ نشأته طفلاً بمنطقة البدوع بوادي سوف إلى أن أصبح شاباً مثقفاً يسعى إلى تغيير العالم بفكره ورؤيته الكونية للمجتمع، إذ تمثل مذكراته نصاً سردياً مكتمل الأركان " غايته هو الكشف والوعي بحقيقة الوجود الإنساني المتمثل في القيم أو الحقائق الإنسانية الخالدة، وأنّ منشأ اللذة التي يشعر بها مبدع النصّ السردية وقارئه تكمن في تذوق عملية ممارسة هذه التجربة اللذيذة تجربة اكتشاف الإنسان حقيقة ذاته"⁷

ولما جاء سرده في هذه المذكرات شاملاً لأخبار الآخرين من عامة الناس الذين عايشهم وغاص في تفاصيل أصله ونسبه وبحث في تاريخ أجداده ووصف حياة الإنسان عموماً في الصحراء الجزائرية على مرحلتين متتاليتين؛ الأولى في ظلّ الاحتلال الفرنسي للجزائر، وما جناه من محاولات لمحو الهوية

⁶ - صالح معيض الغامدي، كتابة الذات، دراسات في السيرة الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2013، ص53.

⁷ - حاتم بن التهامي الفطناسي، السرد وأسئلة الكينونة، بحوث مؤتمر عمّان الأول للسرد، ص138.

الوطنية، والمرحلة الثانية بعد الاستقلال وما خلفه الاحتلال من معتقدات تضليلية، فإنّ (أبا القاسم سعد الله) كان فطنا جدًّا إلى ضرورة تدوين مذكراته من أجل إثبات ذاته وإنجازاته، وتأكيدا على الكفاح المستمر الذي عاشه، وإصرارا على ضرورة الحفاظ على المبادئ والقيم مهما كانت الاغراءات والفتن، كما يبين من خلالها تحمله لمسئوليّاته تجاه الأسرة والدين والوطن.

وعليه فإننا نتفق مع كاتبها (أبو القاسم الأب) وناشرها (أحمد سعد الله-الابن) بأنّها مذكرات شاملة لليوميات والمغامرات، والنجاحات والانكسارات، ولكنها ليست كغيرها من المذكرات ذات الصبغة الوثيقة الجافة التي لا تتعدى كونها سرد لحقائق ووقائع بلغة هشّة متذبذبة، بل تصادفنا هذه المذكرات بأسلوب سردي ممتع تتجانس فيه المعارف وتتجاذب فيه الأحداث وتتناسق بلغة أدبية رفيعة مستفزة للقارئ لأن يعرف تفاصيل الحكاية كلها. وهذا ما جعلها سردا أدبيا يتداخل مع السرد الروائي من جهة والتوثيق التاريخي من جهة أخرى، فهي ليست سيرة ذاتية تعبر عن محكي استرجاعي ثري، ويحكيه شخص واقعي عن وجوده الخاص، بالتركيز على حياته الفردية على حد تعريف "فليب لوجون" للسيرة الذاتية، بل هي سرد استرجاعي لذكريات تركت أثرها في شخص الكاتب، وكانت دافعا قويا لتحقيق ذاته وتكوين شخصية متميزة لا يزال تأثيرها إلى اليوم من خلال مؤلفاته في الفكر والمجتمع.

3-جمالية التفاصيل في مذكرات أبي القاسم سعد الله :

جمع أبو القاسم سعد الله في مذكرات بين تفاصيل كثيرة في حياته، منها ما يتعلق بالأهل والأقارب ومنها ما يتعلق بشخصه ونسبه، ومنها ما يتعلق برحلاته العلمية، ومنها ما يتعلق بالتوثيق التاريخي لحوادث بعينها، وفي كل ذلك يستعمل لغة أدبية راقية، تجعل القارئ ينسب معها ويغوص فيها دون شعور بالملل والضجر، وعموما يمكن أن نقسم مسار مذكراته إلى قسمين: أثناء الاحتلال الفرنسي، والقسم الآخر بعد الاستقلال الوطني، ومن التفاصيل التي أبدع في وصفها أدبيا:

*اسمه ونسبه الشريف: ركّز الكاتب في هذه الجزئية البحث في شجرة العائلة وإثبات نسبه إلى عائلة جحيدر أو شحيدر التي ورد ذكرها في كتاب "ملوك حيمر" فاسمه بالكامل هو: أبو القاسم بن أحمد بن علي بن محمد بن سعد بن مبارك بن علي جحيدر، ويؤكد ذلك بقوله: "تذهب روايات الكبار إلى أن أسرتنا ترجع إلى جحيدر(ينطق أيضا شحيدر) الذي جاء أحد أحفاده إلى قمار بوادي سوف،

واسم جحيدر معروف في تاريخ العرب القديم. فقد ورد في كتاب ملوك حيمر أن عمرو بن جحيدر أحد من تخلف باليمن من ثمود بن عامر. عينه كهلان الحميري على ناحية خيبر وتيماء والوادي وما قارب أيلة العقبة، ليحكم ساكني هذه البلاد من ثمود وزهرة بن عمليق، وهم عشائره.⁸

وتمثل عائلة جحيدر هذه إحدى أشرف العائلات التي عرفت بالعلم والدين "وورد اسم جحدر (على وزن جؤذر وجهرم) في مقدمة ابن خلدون حيث روى ابن سعيد أن أبا الحسن بن جحدر الأشبيلي كان إمام الزجالين في عصره (عصر المرابطين)."⁹ ولعل تركيز الكاتب على إثبات نسبه إلى هذه العائلة الشريفة رغبة منه في إثبات ذاته وتأكيد أن ما وصل إليه من علم ومناصب له علاقة بكونه ينتسب إلى عائلة ذات سمعة وجاه. ولا شك أن البحث والتنقيب عن شجرة العائلة أمر مهم بالنسبة للجزائريين الذين تعرضت ألقابهم إلى التغيير والتبديل تحت أوامر الاحتلال الفرنسي الذي سعى بشتى الطرق إلى محو هوية الشعب الجزائري.

وبالتالي تبين هذه التفاصيل في مذكراته جانبا من الانتهاكات التي مارسها الاحتلال الفرنسي على الشعب الجزائري، يقول "أما اللقب سعد الله فهو من مستحدثات العهد الفرنسي، فقد فرض الفرنسيون على الجزائريين تغيير الحالة المدنية، وطلبوا من كل عائلة أن تختار لقباً خاصاً بها تعرف به بين الناس على الطريقة الأوروبية، فاختار عمي عبد الله الذي كان أكبر إخوته، سنا واتصالاً بالسلطة واجتمع، لقب سعد الله على أساس أنه لقب مركب من سعد وهو اسم جدي الثالث مضافاً إلى اسم الجلالة وكان ذلك سنة 1934، وهو التاريخ الذي وصلت فيه عملية التلقب إلى منطقة وادي سوف، وهي هي العملية التي بدأت في المناطق الشمالية من الوطن سنة 1882 باعتبارها جزءاً من عملية استعمارية كبرى تتمثل في محو هوية الشعب الجزائري لدججه في البوتقة الفرنسية-سياسة الادمج."¹⁰

*اليوميات: لئن كانت اليوميات جنساً أدبياً مستقلاً بذاته عند بعض النقاد والدارسين، فإننا في هذا المقام نتناولها بصفتها جزءاً من المذكرات التي لجأ الكاتب إليها في سرد تفاصيل الحياة اليومية في وادي

⁸ - حياتي، مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2015، 09.

⁹ - المصدر نفسه، ص10.

¹⁰ - المصدر السابق، ص15 و16.

سوف عموماً، وعند سكان قمار خصوصاً بطريقة السرد المتسلسل الذي يجعل القارئ يندمج معها ويعيشها كأنه في زمنها، ولعل تركيزه على حياة الناس في بلده ويوميّاتهم هي التي منحت كتابته شرعية التّجنيس بأنّها مذكرات وليست سيرة ذاتية، فنجدّه في الفصل الأول يركّز على الآخرين أكثر من تركيزه على ذاته، ويسلط الضوء على حقبة تاريخية صعبة إبان الاحتلال الفرنسي للبلاد، فيعبر عن صعوبة الحياة بالنسبة لسكان قمار الذين يأكلون بعرق جبينهم، ومقاومتهم لقساوة الطبيعة والفاقة التي كانوا عليها.

ومن صور السرد الأدبي التي تعرض لها هي وصف يوميات الفلاحين قوله "كان الاستيقاظ عادة بين الثانية والثالثة صباحاً، وبعضهم كان يشرع في العمل قبل ذلك، فلا تكاد تطلع الشمس حتى يكون العمل قد أوشك على النهاية. ورغم الشتاء القارس وحتى الجليد أحياناً الذي يسمع وهو يتكسر تحت الأقدام وحوافر البهائم فإنّ العامل لا يكاد يلبس أكثر من قندورة صوف وقميص من قماش يسمى المالطي(...). وأحياناً تكون الرجل حافية تماماً. وبذلك تتعرض القدم للتشقّق في الشتاء حتى يسيل منها الدم في بعض المرات. ولكي يلتئم الشق يفرغ عليه الشحم المذاب حامياً. أما أصابع اليد فتكاد تتجمد لولا أن العامل يضعها أحياناً تحت إبطه فتدفاً قليلاً قبل أن يحتاج إليها أو ينفخ عليها بضمه(...)"¹¹

ولا تقتصر اليوميات على العمل فقط بل تشمل كذلك مختلف صور الأفراح والحفلات التي كانت تقام بين الفينة والأخرى "ومن الأفراح ميلاد الولد الذكر وختانه. ولكن مثل هذا الفرح لا يخرج من المنزل ولا يسمع عنه الجيران إلا صدى زغرودة القابلة أو إحدى الحاضرات لميلاد الولد. أما عند الختان فإن الوالد تفادياً للصرف الزائد يأتي بالطّهار ليختن الولد بطريقة تكاد تكون سرية حتى الأم لا تعلم أحياناً إلا عندما يحمل إليها ولدها وهو مختن والدموع في عينيه والدم في بعض ملبسه."¹²

تمثل هذه المقاطع جانباً من جوانب تداخل السرد المذكراتي مع اليوميات، وهذه الظاهرة لا يسلم منها أحد ممن كتبوا مذكراتهم لأنها حلقة مهمّة جدّاً في تصوير البيئة العامة التي نشأ فيها الرجل، وذلك كله

¹¹ - المصدر السابق، ص 27.

¹² - المصدر نفسه، ص 38.

سيكون له تأثير في تكوين شخصيته لاحقاً، فقد تعلّم ممّا عايشه عادات بلده وأعرافهم في التعامل مع الحياة والطبيعة خاصة، ومن تقاليدهم أنه "من العيب أن يطلع الفجر على أحدهم وهو نائم، فالرجل الذي يفعل ذلك يصبح مضغة في الأفواه ولا تفكر النساء في الزواج منه"¹³ وبذلك ينشأ الشاب عندهم متسلحاً بهذه الفكرة فيبدأ يومه قبل أن يطلع الفجر على باقي سكان البلدة ولعل هذا التقليد عندهم قد فرضته قساوة الطبيعة الصحراوية والحاجة إلى الكد والعمل تجنبا للفقر والفاقة التي كان يعيشها الشعب الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي. وإلى جانب اليوميات نجد أن مذكرات أبو القاسم "تتسع دائرتها لتناول الحياة العامة بشكل رئيس"¹⁴ ومنها التركيز على الطابع الفلكلوري لأهالي البدوع.

***الطابع الفلكلوري:** ويركز في هذا الجانب على العادات والتقاليد من اللباس والحلي التقليدي المعروف في منطقة قمار وعند سكان البدوع خاصة كنمط من أنماط الحفاظ على الهوية والتراث الشعبي عندهم، واللباس عندهم يكتسب خصوصيته من خصوصية البيئة الصحراوية" فاللباس الشائع للرجال هو القندورة وهي من الصوف في الشتاء ومن الكتان الماطي في الصيف، والبرنس كغطاء خارجي يقي من برد الشتاء ولكنه لا يستعمل أثناء العمل وإنما أثناء الجلوس أو الانتقال من مكان إلى آخر كيوم السوق مثلا، وقلما يلبسون القشايية (...). وهناك من يلبس السورية وهي قميص طويل من القماش الماطي أو التيسور وفي العهود الأخيرة انتشر لباس السروال العربي الشائع في بلاد الشام، والقمحة وهي قميص حديث دخل بعد الحرب العالمية الثانية في الملابس المستعملة (...). ومن لوازم لباس الرأس عند الرجال هو لباس شاش(العمامة) من الصوف لأنه من المفروض اجتماعيا ظهور الرجل حاسر الرأس أو حتى بالعراقية فقط"¹⁵

ويعتبر اللباس أحد أبرز مكونات الهوية والمقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، وقد حافظت النساء كذلك على هويتها الجزائرية عامة والصحراوية بصفة خاصة، فكان لباس المرأة الحولي والروبا" والحولي في الشتاء من الصوف، وهو عادة أسود اللون أو بالألوان الزاهية، وهو قطعة عريضة من القماش تخاط

¹³ - المصدر السابق، ص26.

¹⁴ - إيميل بديع يعقوب، ميشال عاص، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، أيلول 1987، م1، ص1138.

¹⁵ - المذكرات، ص35.

وتجعل حواشيها سفسفة بلون مختلف صارخ. والحولي ساتر لجسم المرأة وهي تخلله عند الصدر والرقبة بالخلخال الذي هو عبارة عن مساك منقوش من الفضة يمسك به الحولي من جانبي الرقبة، وتتحزم المرأة على الحولي حتى لا يعيقها عن العمل والحركة (...). كما تلبس المرأة تحت الحولي قندورة سوستي (ناعمة) أو سورية كتان ذات أكمام بلون مختلف عن لون القندورة (...). وفي الصيف تلبس المرأة ملحفة مع أي لون مع سورية أو بدونها¹⁶

ولم يتوان الكاتب في مذكراته عن وصف الطابع الفلكلوري لتقاليد المرأة في حفلات الزواج والتزين بالحلي الذي يكون غالبا من الفضة في أشكال متنوعة " منها السوار الكبير أو المقياس، والخلخال بالطلبة، والريحانة التي هي عبارة عن سلسلة فضية ملساء ذات أشكال هندسية متنوعة. أما خلال بالطلبة فهو سلسلة فضية تحمل قطعة في شكل متوازي الأضلاع بها خرزات ملونة. (...) وهذه الحلي قد تكون فضية أو نحاسية أو حتى من الآبنوس الإفريقي.¹⁷

ومن أشكال السرد المذكراتي التي ذكرها أبو القاسم الطابع الفلكلوري عند سكان قمار في حفلات ختان الأطفال الذكور مثل تعليق الراية بعد صبغها بالزعفران على أعلى مكان من المنزل كإعلان بوجود حفل ختان " وتخضيب يد الطفل اليمنى بالحناء وجعلها عقدا من الصرائر (جمع صرة) المحشوة بالبخور والمنقوعة في الحناء والزعفران والمعقودة بخيطين أحدهما أخضر والآخر أحمر. ويتدلى العقد من رقبة الطفل المختن اللابس لقندورة بيضاء وكبوس (طربوش) أحمر اللون على رأسه. ومن عاداتهم أيضا في ذلك أن الأم ترمي بقدره طينية وسط قصعة مملوءة بالماء فتتكسر القدرة ويتطاير الماء هنا وهناك بينما هي تطلق زغرودة عالية (...). وتنشد الأم أغنية تقول: يا أم المطر يا سعود أيامها... الخيل تلعب والنبي قدامها¹⁸

***الاعترافات:** ومن جماليات التشكيل السردية في مذكرات أبي القاسم سعد الله التي بينت أدبيته هو تداخل السرد المذكراتي مع الاعترافات التي تعتبر نمطا أدبيا آخر، ولعل من أطرف محطات الاعترافات

¹⁶ - المذكرات، ص36.

¹⁷ - المصدر نفسه، ص38.

¹⁸ - المصدر نفسه، ص39.

التي رصدتها الباحثة في هذه الدراسة هو ترده على دور السينما ومن ثمة تعلقه بالفن الغنائي (الطرب) أثناء فترة إقامته بتونس كصورة من صور الانفتاح على الحياة التونسية. ولا شك أن الحديث عن الاعترافات في السرد يذكرنا بكتاب (اعترافات) لجون جاك روسو، وهي في حقيقة الأمر تختلف عن الاعترافات التي وردت في الأدب العربي الحديث في "كلام المتصوفين نحو النصائح الدينية والنفحات القدسية للحارث بن أسد المحاسبي، والمنقذ من الظلال لأبي حامد الإمام محمد الغزالي والطواسين لابن منصور الحلاج، وكلها تصطبغ بالاعترافات التي هي أقرب إلى السيرة الذاتية في مواصفاتها وأسلوب كتابتها، والاعترافات تقتصر بالاعتراف الديني تحت وطأة الإحساس بالذنب أو الخطيئة".¹⁹

جاءت اعترافات الكاتب في هذه المذكرات كنوع من أنواع التنكيت والطفرة لأنها ليست بذلك السوء الذي كتبت به اعترافات جون جاك روسو، يقول أبو القاسم في هذا الشأن "أما الأمر الثاني الذي تعلمته في سنة 1949 فهو التردد على السينما (...). إحداهما تدعى (سيني سوار) والأخرى تدعى (الحمراء) (...). والأفلام المصرية على ذلك العهد كانت كلها تقريبا استعراضية-غنائية. فتعلمت كثيرا من لهجة مصر، وتعلقت تعلق العاشق بأسمهان، وتأثرت بصوتها إلى درجة الوجد الصوفي. وكان جمال صوتها ومظهرها الحزين ومهابتها قد جعلتني أفهم أن الحزن صورة من عمق الحياة وأن المهابة هي التعبير الحقيقي عن الفن. وقد حفظت أغانيها الفصيحة والشعبية، وكررت مشاهدة أفلامها لأتلمذ بسماع صوتها ورؤيتها وهي تغني ولو في صورة خيالية. أما الفتاة الأخرى التي أثرت عليّ فهي نور الهدى ذات الصوت الناعم، والذي يرجع إلى أوراق القديمة سيجدني أكتب اسمها على هوامش دفاتري إذ عندما لا أجد ما أكتبه في لحظات التأمل كنت أكتب اسم نور الهدى بالخط الجميل وأتفنن فيه".²⁰

*الذاكرة والاسترجاع المنظم:

توظيف الذاكرة تقنية مهمّة جدا في السرد المذكراتي الذي يعتمد على الاسترجاع المنظم Flach Back للأحداث الماضية، وهذا ما يجعل المذكرات تحمل بعدا تاريخيا للأحداث الواقعية، وعليه غالبا

¹⁹ - عبد المجيد البغدادي، فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان،

ع23، 2016، ص202.

²⁰ - المذكرات، ص120.

ما تكون المذكرات جزءا مهما مما شاهده الكاتب وعاشه على فترات وأزمنة مختلفة، ومما ورد في مذكرات سعد الله هو اعتماده على سرد أحداث واقعية يسترجعها بتفاصيلها وتاريخها، فتبدو كأنها سرد تسجيلي، كما هو الحال في قوله " سنة 1948 شهدت حدثا جديدا في السياسة بوادي سوف عامة. فلأول مرة خرج الوادي من المنطقة العسكرية وأصبح من حق أهله المشاركة في الانتخابات. وكان ذلك نتيجة قانون سنة 1947 المعروف بدستور الجزائر، وقد أخذ الناس يقارنون بين عهدين عسكري ومدني، ولكنهم وجدوا في النهاية أن موسى الحاج هو الحاج موسى - كما يقول المثل -".²¹

وقد تكررت المحطّات التي اعتمد فيها الكاتب على السرد الاسترجاعي للأحداث والوقائع وذلك من باب التوثيق، وكثيرا ما نجده يكرر عبارات على نحو (أذكر /ومن ذكرياتي) وغالبا ما تعلق السرد التاريخي بالوقائع والقرارات السياسية سواء كان في الجزائر أو في أثناء فترة إقامته بتونس، ومن ذلك سرده للوضع السياسي في تونس قائلا " كانت آثار الحرب العالمية الثانية ما تزال ظاهرة في تونس هذه السنة (1947/1948) فالناس ما يزالون يتحدثون عن (الراسيون) أي تقنين توزيع المواد الغذائية لكل عائلة وفرد. ويتحدثون أيضا عن المعاناة التي عانوها جراء إهانات الجنود الأجنبية، والجوع والسجون، والأزمة الاقتصادية، كما تسمعونهم يتحدثون عما جرى للمنصف، باي تونس، الذي نفاه الفرنسيون إلى الجزائر متهمين إياه بالتواطؤ مع المحور، وجاءوا بشخص آخر من العائلة الحسينية نفها يعتبره الناس في طاعة الفرنسيين، وهو محمد الأمين باشا باي".²²

ومن ملامح السرد التاريخي أيضا ما قاله تأكيدا على معرفته ببعض الشخصيات التاريخية التي كان لها صدى كبير وأثر بالغ في تاريخ الجزائر الحديث أمثال (مولود قاسم) و(محمد مرازقة) قائلا " وفي هذه السنة 1949 بدأت أخرج من قفصي. كان للطلبة الجزائريين دمية تحمل اسمهم، وكان لهم مقر في شارع عبد الوهاب قرب رحبة جامع الهواء، وقد زرت المقر مرتين، وأذكر أنني رأيت فيمن رأيت

²¹ - المذكرات، ص 97.

²² - المصدر نفسه، ص 81 و82.

مولود قاسم ومحمد مرازقة، وكان بعض الطلبة على اتصال بجمعية العلماء الجزائريين وبعضهم على اتصال بحركة انتصار الحريات (حزب الشعب) وكل فريق يحاول تجنيد الطلبة إلى جانبه.²³

***اللغة السردية /جمالية الوصف:** ومّا يجعلنا نقرّ بأدبية هذه المذكرات التي بين أيدينا هو نزوع الكاتب إلى استعمال لغة أدبية جيدة توحى بإتقانه لأساليب الكتابة الأدبية، وفي هذا الصدد لا ننسى أن الرجل كاتب ومؤلف لعدد من الكتب الفكرية والاجتماعية، ومتحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي والعلوم الإسلامية، فكانت له اسهامات كثيرة واهتمامات بالكتابة الأدبية وقرض الشعر، بل كان مولعا بحفظ الشعر ومطالعة كتب الأدب ، وهذا ما جعله يتمكن من مهارات الكتابة الأدبية، ويؤكد تأثره بأسلوب مصطفى صادق الرافعي الذي قرأ له، واكتسب رصانة الأسلوب من الشعر القديم الذي كان يحفظه، وبذلك جمع في تكوينه الأدبي بين القديم والحديث، يقول " وتأثرت كثيرا بكتب مصطفى صادق الرافعي رغم صعوبتها بالنسبة لسني فقد طالعتها جميعها عدة مرات عدا كتاب تاريخ آداب اللغة العربية وديوانه. وقرأت في الدواوين القديمة كالمثني وابن الرومي وابن أبي ربيعة...وحفظت أجزاء من المعلقات وبعض عيون الشعر العربي، ومن الشعراء الحديثين قرأت للشابي، وأحمد زكي أبي شادين والرصافي وشوقي وحافظ إبراهيم (...). ولم أترك كتابا من كتب جبران إلا قرأته."

إن هذا الاهتمام الكبير بالشعر وقراءة الكتب الأدبية والنقدية كان لها الأثر البالغ في تكوينه الأدبي، وهذا ما انعكس إيجابا على قلمه مما جعل مذكراته تبدو كأنها سرد روائي تتجلى من خلاله الشخصيات والزمان والمكان في ترابط والتحام شديد يجعل من الصعوبة بما كان التوقف عن فصل بعينه، بل يجد القارئ نفسه يلتهم الكتاب التهاما سلسلا بقراءة مائعة، تعبر عن علاقة متينة بين الكاتب والنص، ومن جماليات اللغة التي تظهر في الكتاب ما جاء في وصف الشخصيات والأماكن؛ ومنها وصفه لوالده " وإذا رأيته رأيت رجلا متوسط الطول قمحي البشرة قرمزي العينين، مستطيل الوجه، له جبهة عريضة عالية وأنف عربي مستقيم ومنذ عرفته كانت له لحية قصيرة وشارب.²⁴ وجاء في وصفه لجدّه عليّ قوله " كان قوي البنية طويل القامة أبيض البشرة له عينان تملان إلى الخضرة، له هيبة

²³ - المصدر نفسه، ص110.

²⁴ - المصدر نفسه، ص20

وصرامة. " وأما وصفه للأماكن فالمواضع كثيرة على امتداد الكتاب، ولعل أجمل ما يمكن أن نستدل به في هذا المقام هو وصفه لمدينة قسنطينة ليلاً، يقول " وعندما تقترب من قسنطينة حوالي الحادية عشر والنصف ليلاً، تظهر لنا المدينة عن بعد كأنها معلقة على صخرة الجبل، أو كأنها قبة السماء معكوسة، أو كأنها الأرض تحولت إلى بحر فانعكس على سطحه نجوم السماء، فالأنوار الكهربائية شديدة اللمعان، وكانت تزداد لمعانا وإشراقا كلما ازددنا دنوا من المدينة. وعندما نصل إلى المدينة نفسها تكون نائمة وخالية إلا من المارة والمتسكعين." ²⁵

***السرد الرحلي:** وتمثل كتابات الرحلة عند العرب منذ القديم أسلوباً من أساليب الكتابة الذاتية، وقد كان لها حضوراً واسعاً في مؤلفاتهم، وهو جنس أدبي قائم بذاته، ويندرج السرد الرحلي تحت مصطلح أدب الرحلة وهو " مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته، وفي بلاد مختلفة. وقد يتعرض لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته، مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد. وقد اشتهر العرب بأدب الرحلات ومن أهمها رحلة ابن بطوطة" ²⁶ وقد أشار الكاتب في مذكراته إلى أهمية الترحل عند الإنسان العربي القديم، فقال أن "ملازمة الجدار عند العرب فيه مذلة وهوان، وفي زماننا نقرأ عن ترحل الأمريكيين من ولاية إلى أخرى في بلادهم، ما يذكرنا بعبادة العرب من رغبة في الارتحال وعدم ملازمة المكان، لما في الترحال من متعة وحرية ورزق واستلهاً وتجارب." ²⁷

والرحلة أبرز ما يركز عليه كتاب المذكرات كونها تتبع مسار حياتهم وتنقلاتهم وأسفارهم وما عاشوه من مغامرات، وتحاول الدراسة في هذه الجزئية التركيز على أبرز المحطات التي وطأها أبو القاسم سعد الله أثناء مسيرته العلمية، وتشمل رحلاته إلى بعض البلاد العربية كتونس ومصر وعاصمة الجزائر والبلاد الأجنبية كأمریکا، وقد ركز في مذكراته على عرض تفاصيل رحلاته العلمية وما لقيه فيها من علوم وعادات وسلوكات، فكانت رحلته الأولى إلى تونس والالتحاق بجامعة الزيتونة لتلقي علوم الدين

²⁵ - المذكرات، ص 132.

²⁶ - مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت، ط 2، 1984، ص 17.

²⁷ - المذكرات، ص 12.

والعربية، أما رحلته إلى مصر (القاهرة) فقد مثلت بالنسبة له مركزا للإشعاع الفكري والسياسي في وقته، جعلته يؤمن بوحدة التاريخ والمصير العربي كما عرفته بشرائع أدبية جديدة فاختلف بها وناقش ونشر واكتشف ذاته وبين الدّوات الأخرى، أما رحلته إلى أمريكا فكانت نقطة التحول في توجه سعد الله التعليمي من دراسة الأدب إلى الدّراسات التاريخية.²⁸

*السرد التخيلي: يتجلى السرد التخيلي في مذكرات سعد الله في عدّة مواضع، والمقصود هنا بالسرد التخيلي القدرة على استرجاع الواقعي الماضي كأنّه آني وليد اللحظة "ومعاودة استرجاع أحداثها التي مرّت عليها سنوات طويلة، تجعل التلاحم بين الواقعي والمتخيل مؤسسا لواقع جديد وهذا لا شك واقع إبداعي آني له آليته الخاصة، قد يختلف عن الواقع الحقيقي أنه مشحون برؤية فردية أو جماعية خاضعة لقوانين المكان والزمان في شكلها الذي ينتسب إلى التجربة الروائية في كثير من الأحيان"²⁹

ويظهر السرد التخيلي خاصة عند حديثه عن تفاصيل غرس النّخيل عند سكان وادي سوف بأسلوب سردي شيق يجعل المتلقي يتخيل الأحداث كأنّها أمام عينيه، فيدع في وصف عملية جني التمار التي طالما اعتقد عامة الناس أنّها عملية سهلة، ليتفاجأ بتفاصيل غرس النّخيل ورعايتها ومعاونة الفلاح معها قبل أن يشتد عودها، يقول: "والذين درسوا كيف يرعى أهل سوف النخيل يدركون أن عملية الرعاية هذه ليست سهلة، بل هي نوع من الأشغال الشاقة لأنّها تمثل صراعا مباشرا وغير متكافئ مع الطبيعة، فالفسيل لا ينمو إلا وضعت عروقه على وجه الماء، ولكن الماء بعيد الغور وفوقه كئيبان عالية من الرمال، وطبقات سمكة من الحجر، ولكي يوضع الفسيل في مكانه المناسب لنمائه كان على صاحبه أن يحفر لكل فسيل حفرة عميقة تسمى مطمورا، وعندما يبدأ الفسيل أو الغرسة في النمو وذلك بفرش عروقتها في الثرى يوسع لها صاحبها من المطمور بالتدرج إلى أن يصبح المطمور بحيرة، أي توسعة من أجل الهواء والشمس، وهي ليست بحيرة من ماء ولكنها بحيرة من تراب لا يتعد فيها الماء أكثر من ذراعين(...)"³⁰

²⁸- ينظر: خالد مريم، السيرة والمسيرة التعليمية للدكتور أبو القاسم سعد الله، مجلة الخلدونية، مج9، ع1، ص266.

²⁹- الرواية العربية بين التخيل والواقع، الخليج صحيفة الكترونية : على الموقع: <https://www.alkhaleej.ae>

³⁰- المذكرات، ص24.

خاتمة:

حاولت هذه الدراسة أن تتعمق في جمالية التفاصيل التي دوّن بها سعد الله مذكراته، وأثبتت تقاطع هذا الجنس الأدبي مع أجناس أدبية أخرى كالرواية والتاريخ والسرد الذاتي، فقد مثلت مذكرات الدكتور سعد الله سندا أدبيا قويا بسبب تكوينه الأدبي الجاد، وأبرز من خلالها مسيرته العلمية الحافلة بالنجاحات بالرغم من بعض الانكسارات التي عانى منها بسبب وضع البلاد إبان الاحتلال الفرنسي، مما دفعه للهجرة باحثا عن مستقبل وحياة أفضل، وهمه في ذلك كله العودة لأرض الوطن بعد تحقيق الغايات.

كما حاول الدكتور سعد الله من خلال مذكراته أن يثبت ذاته ويحقق حلمه من خلال عدة نقاط أراد أن ينقلها للقارئ ويؤكد عليها وأهمها: الايمان بالله سبحانه وتعالى، والكفاح المستمر بغية الوصول إلى الهدف المنشود، الالتزام بالمبادئ والأخلاق ولو خارج حدود البلاد، تحمل المسؤولية الكاملة تجاه الأسرة وتجاه الوطن.

كم تجدر الإشارة في نهاية هذه الدراسة أن الباحثة لم تتعامل مع مذكرات الدكتور سعد الله باعتبارها مذكرات تقريرية وتوثيقية بقدر ما تعاملت معها على أساس أنها سند أدبي حقق جمالياته اللغوية والأدبية السردية بالتقاطع مع مختلف الأنواع الأدبية الأخرى، وكانت التفاصيل التي عرج عليها الكاتب هي ملح الكتابة الأدبية التي استعان بها الكاتب على غرار الطابع الفلكلوري وجمالية اللغة الواصفة، والاعترافات والاسترجاع الفني وغيرها.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1-حياتي، مذكرات الدكتور أبي القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2015.
- 2-محمد مصمولي، أدب المذكرات في تونس، مجلة الآداب، مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر، ع4، 11أفريل 1972، تونس.
- 3-حاتم بن التهامي الفطناسي، السرد وأسئلة الكينونة، بحوث مؤتمر عمّان الأوّل للسرد، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، مجلة دبي الثقافية، الإمارات.
- 4-علي عبده بركات، رواد السيرة الذاتية من إفرنج وعرب، مجلة العربي، ع165، جمادى الآخرة 1392هـ/ أغسطس 1972.
- 5-حبيب بوزوادة ، أدب المذكرات في التراث العربي، قراءة في الثغر الجمالي لابن سحنون الراشدي، مجلة اللغة العربية، مج، 24، ع2، الثلاثي الثاني، 2022.
- 6-صالح معيض الغامدي، كتابة الذات، دراسات في السيرة الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1 ، 2013.
- 7-إيميل بديع يعقوب، ميشال عاص، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، أيلول 1987، م1.
- 8-عبد المجيد البغدادي، فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان، ع23، 2016.
- 9-مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت، ط2 ، 1984.
- 10-خالدي مريم، السيرة والمسيرة التعليمية للدكتور أبو القاسم سعد الله، مجلة الخلدونية، مج9، ع1.
- 11-الرواية العربية بين التخيل والواقع، الخليج صحيفة إلكترونية: على الموقع:

<https://www.alkhaleej.ae>